نقش الحناء

شعور بالتسامي والشموخ يملؤها، يخفف من وزن جسدها، يمحو وإن قليلا وجع الحس بالندم، والتي لم تعتاده قبلا، مشاعرها الإيجابية تلك تنعكس بقوةعلى ملامحها، فتزيدها ملاحة، وتبدو بشرتها رائقة، ويتخفف الرمادي الذي يرسم هالات دائرية حول عينيها فتلتمع نظراتها عن ذي قبل، كانت أمي يملؤها الحبور، تطير في مشيتها وكأنها لا تسير، ليست هي نفس الأرض التي اعتادت أن تحتضن خطواتها، ولا الناس هم نفس البشر .

هذه المرة تعرف وتدرك معنى وأهمية الخطوة، التي ستقدم على تحقيقها.

أصبحت من الماضي الْان كل تلك المحاولات، التي باعدت دوما بينها وبين تحقيق ما ترتأيه.. عراقيل تتخفى وراء وشائج حريرية، تسحبها بخيوط شباكها إلى الوراء وتغوص ثانية في نفس الماء الآسن، دورة شبه أبدية، لا تنفض تطوقها.

تصدح أم كلثوم عبرا لمذياع برائعة الخيام ، تتمعن في كلماتها وكأنها تسمعها للمرة الأولى، ترى بين ثنايا حنجرتها الذهبية تحريضا محمودا مواتيا "لاتوحش النفس بخوف الظنون.. واغنم من الحاضر أمن اليقين"

كادت ترد عليها:حاضر.. رسالتك وصلتني يا سيدتي.

شككت دوما مع صديقاتها في قدرة عمر الخيام على التعبير بهذه الدرجة من العذوبة.. سلام لروحك أحمد رامي.

أبواب قلوبنا نفتحها للبعض، نجلسهم بداخلها، نصطحبهم معنا نأتنس بهم لفترة تطول أو تقصر، وأحيانا أخرى نشرع ابواب ونوافذ قلوبنا وعقولنا لنزيح عنها حمل أناس كانوا قبلا جزء منا. نحتل بأجسادنا مساحة من الزمان والمكان.

نتحد مع الكون بتعارفنا على من حولنا منذ نشأتنا الأولى، إلى أن نكتشف مكنوناتهم، فنسمح لهم بالغياب.

يوما؛ كانت تشاهد معي برنامج "عالم الحيوان" سمعتها تقول في تمنٍ: ليتنا ضفادع أو دببة، نقضي نصف حياتنا في سُبات شتوي. نرتاح بعض الشيئ، وحتى للأبد.

كانت ترزح تحت نير مسؤليات، تسيّر البيت وتراعى الصغار والكبار، وطلبات لا تنتهي للزوج، تكثر مشاغلها..

لاتجد لذاتها وقتا، ولو قليل للراحة، حتى حين كانت تنهي كل ما كان يشغلها، وترتكن لأقرب فراش، وتروح في النوم رغم الصخب الدائر حولها.

قبل سفرها، أصرَّت على الذهاب الى بلدتها لزيارة أقاربها وجاراتها القديمات. كانت الاجابة التى تتلقاها غالبا واحدة: " العمر الطويل لك."، فتترحم عليهم، وتعود يفطرها الحزن. تحضّرت بعد عودتها، للسَّفرة التى تحلم بها لسنين.

تزينت بملابسها الشتوية، التى مازالت جديدة والتى تليق بأول شهور العام الباردة، لكن حقائبها امتلات بالجديد من الملابس الصيفية مع ملابس الإحرام، والهدايا المنتقاة لأحفادها، أولاد ولدها الاكبر..

الذي يعمل في تلك البلاد، دعاها عنده هناك بالقرب من منطقة مناسك الحج. وتقضي ثلاثة أشهر هناك، تشبع من الأحبة وتزور أرض النبي.

كانت تحب الخروج والتنزه كثيرا، لكن ذاك لم يكن يتحقق إلا أيام السفر للمصايف الشاطئية الموسمية، ونذكر جميعا حين كنا في "مطروح، وكان الجميع نياما تعبا من السهر ومن سباحة الأمس، قامت هي مبكرا، وسألت عن مواصلة، وذهبت لرؤية متحف"روميل" ولم نكتشف ذلك إلا حين عودتها.

هذه المرة ستغيب طويلا، ثلاثة أشهر، كانت تردد أنها ستبتعد عن الشقاء..كانت فرحة تملؤها الحياة، لكن شرودا غامضا ملحوظا كان يلفُّها.

كانت تضاحك زوجة ابنها كلما اقتربت منها تساعدها في هندمة طرحتها ، شعرها الحريري المنسدل يعاكس محاولات تثبيته فوق رأسها، تقول : وبعدين. أقابله بدونه؟وكانت تشير إلى السماء

كانت تحكي لنا عن ليلة عرسها حين احضروا لها من يصفف شعرها بالبيت،كيف كانت حيرة الرجل في تثبيت تسريحة شعرها الرافض لملاسته أن يستجيب وعرض عليها وقتها أن يبلل خصلات شعرها بقليل من ماء الشعير، ويتركه حتى يجف، فيصبح أكثر تماسكا ويستحق أجرته.

قبل يوم الحجيج بيومين، زارت الجارة سودانية الأصل في الشقة المقابلة، والتي قررت أن تنقش يديها وقدميها بالحناء، وكأنها في طقس عرس، فهي ذاهبة للقاء "الحبيب" كما كان يحلو لها دوما القول، وهي تعني أيضا " ربها"، وعند توديعها لزوجة ولدها كادت تنهي احتساء فنجان القهوة، قالت لها شاردة: " لو أنهي قهوتي هناك.. وأسلم روحي لخالقها،أكون في غاية السعادة."

كان ولدها في مدينة أخرى في رحلة عمل قصيرة، وحين أخطروه أنها باتت في عداد من تم الصلاة على جثامينهم بمنطقة البقيع، لم يصدق، فقد كانت في أحسن حالاتها الصحية، لكنه اتجه صوب ثلاجات حفظ الموتى، يبحث عن جسد أبيض ناصع، وملامحها الطيبة

التي يحفظها سنينا، لكنه فشل في التعرف عليها، لتشابه الموتي، حين تمر أيام على الجسد الميت.

ولما هاتف زوجته، أخبرته بنقش الحناء، راح يبحث من جديد، مد يده على القدم الباردة، فرأى نقش الحناء، تأكد أنها أشفقت على ذويها، وسهلت له مهمة العثور عليها